مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد 08 العدد: 02 جـــوان (2024) ص 260/ 268

حجاجية الخطاب الجغرافي في النص القرآني

The argumentation of geographical discourse in the Qur'anic text

د ، بختي العياشي *
جامعة : خميس مليانة، الجزائر
layachi.bakhti@univ-dbkm.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024 / 02 /08
تاريخ القبول:
2024/ 05 /27

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الخطاب الحجاجي :
- ✓ الشاهد المكاني :
- ✓ المتلقي:

الملخص:

لا مماحكة أنّ الخطاب الجغرافي أو المكاني من الخطابات الإنسانية التي تحظى بروية في التفكير وإلى دقّة الإدراك وقوّة التخييل، فهو سفير البلد بلا منازع، لأنه يُعبّر بالصّورة المحسَّة والمتخيّلة عن المشاهد الحسية والثقافية لبلد ما، والعمل على ترويجها، والقرآن الكريم غنيّ بهذه المعالم الأثرية والمشاهد المكانية العينية التي جعلها الله عبرة وحجّة للأمم اللاحقة، وتوظيف هذه الشواهد الحسية والمرئية في النص القرآني لم يكن اعتباطيا، بل جاءت منطوية تحت وقائع وأغراض ومقاصد تحركها آلة التفكير العقلاني من أجل بيان الحجّة، وإبراز البعد التأثيري والإقناعي للإنسان مهما كانت عقيدته ومذهبه، لأنّ الخطاب ذات الطابع الحسّي المرئي يكون أقرب بيانا إلى ذهن المتلقي ،كما أنّ هذه الأحداث المكانية باقية وشاهدة على العناد والتّجبر والكفر الذي مارسته الأمم السابقة .

Article info

Received
08/02/2024
Accepted
27/05/2024

Keywords:
- ✓ *Argumentative speech*
- ✓ *Spatial witness*
- ✓ *Recipient*

Abstract :

There is no doubt that the geographical or spatial discourse of the discourses that have a vision in thinking and to the accuracy of perception and the power of imagination, it is the ambassador of the country, because it expresses the tangible and imagined image of the promotion of sensory and cultural scenes for a country, and the Holy Qur'an is rich in these monuments and spatial archaeological scenes that God made an example for subsequent nations, and the employment of these sensory and visual evidence was not employed in the Qur'anic text arbitrarily, but came under the facts, purposes and purposes moved by the thinking machine Rational in order to clarify the argument, and highlight the dimension of influence

*المؤلف المرسل

and persuasion, because the discourse of a visual sensory nature is closer to the mind of the recipient, as it is not possible and that these spatial scenes remain and witness to the stubbornness, arrogance and disbelief in God practiced by previous nations.

1. مقدمة:

لقد تطرق أرسطو إلى الشاهد بالمثال وما ينجرّ عنه من تأثيرات حجاجية إقناعية، فهناك وقائع حدثت فعلا في الفضاء الواقعي في الزمن الماضي ، وهذا ما يسمى ب "المثال التاريخي،وقد تكون مختزنة ،وهو ما يترتب عليه نوعان من الأمثلة المختزنة :المثال القائم على المقارنة *parabole*، والمثال القائم على سرد حكاية مثلية على لسان الحيوان *fable* الخرافة أو الأمثولة باصطلاحات أخرى" 1،فهذه الأمثلة والشواهد تختلف درجة حجاجيتها وتأثيراتها في المتلقي بحسب تمثيلها للواقع الذي يكون أكثر حضورا في الذهن.

أما القرآن الكريم فهو غني بهذه الشواهد التاريخية العينية خاصة عند سرد قصص الأنبياء، التي لها أثر بالغ على نفسية المتلقين، لأنّ أهميتها هداية القلب من الضلال وإحداث تغيير في سلوك الآخرين ،وهذا من خلال نقلها للوقائع والأحداث التي مرت بالأمم السالفة ،فهدفها الأسمى أن "تستحوذ على العقول والأذهان وتأسر النفوس وتعمق الجوانب الإنسانية ليتحقق الغرض الأ سمى لهذه الدعوة ،ولم تكن تلك الأخبار مجرد عبارات تحكى تلك الأحداث ،وإنما جاء القصص القرآني في أبهى قوالب الإعجاز ،وفي تراكيب عجيبة محكمة،وأساليب بلاغية عالية تتفجر منها ينابيع الحكمة وفيوض الموعظة وتتفاوت في بيان معناها بتفاوت الأذواق والمدارك [2]"، ولا تتوقف عند هذا الحدّ، بل تسعى إلى بسط سلطة الإقناع العقلي والتأثير الوجداني على المؤمنين والكافرين على حقيقة التوحيد والإيمان بيوم البعث وكل ما يرمز إلى الدعوة الإيمانية،ومن مميزاتها أيضا حُسن التأليف ،وقوّة السبك والانسجام ،بل تُعدّ خطابا لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف يواكب الفطرة الإنسانية، وله أكبر تمثيلا من الشواهد القائمة على المقارنة والحكاية المثلية؛ لأنها تُعبر بكل صدق وأمانة عن واقعة تاريخية حدثت فعلا في الماضي، والسامع أو القارئ يملك السلطة الحجاجية التي تجعله يقتنع ويذعن ،فهذه الشواهد والوقائع تفصح عن نفسها بكثير من المعاني لقوة حجيتها وبيانها، لهذا تُعد القصص أكبر الشواهد قبولا وإقناعا وتأثيرا في المتلقي، ومن هذا المنطلق يمكن طرح الإشكالية الآتية:

- ما الأثر الذي تتركه الشواهد التاريخية العينية في النّص القرآني في حجّيتها وبيانها على نفسية المتلقين؟

2. القصة القرآنية ودورها الحجاجي والاقناعي:

لقد أخذ سرد القصص القرآني مساحة كبيرة في كتاب الله عز وجل، لما لها من دور في ترسيخ صورة العقيدة الإيمانية الصحيحة، ونقل للأجيال القادمة تجارب الماضي الإنساني بكلّ أمانة، وكذلك في تصويرها للمشاهد والأحداث التي تجعل المتلقي عنصرا متفاعلا في هذه الوقائع الأثرية الصامتة، بالإضافة أنها تهدف إلى ترغيب السامعين إلى تقبّل ما يلقى إليهم من مشاهد وعبر، فتجبرهم على الاقتحام في مسارها السردي، واستنطاق الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم، وهي عنصر أساسي في التنظيم الإنساني، لأنها تحمل عبّرا وقيّما وأفكارا تقنعنا ثم تحملنا إلى برّ الأمان، بل تدعونا إلى تحقيقها في وجداننا ومشاعرنا وسلوكياتنا، وإلى اعتناقها والأخذ بها كلّما احتجنا إليها في حياتنا اليومية، ومن هذا السياق يستخلص أيضا من أنّ العناية الإلهية باقية لبقاء هذا الكون، لا تتغيّر ولا تميل ولا تتأثّر وهذا منذ خُلق هذا الكائن الإنساني، لهذا عُني القرآن الكريم بالقصص أيّما عناية لأنّها تشريع ربّاني مبين لا يحتاج إلى شيء خارجي أبدا. وتظهر أدلته المادية من

خلال الآثار لتلك القرى المهلكة ،فتضعنا أمام سؤال محيّر ،كيف حدث هذا من غير وجود علامة ظاهرة؟ فيقف الناس من هذه الأدلة الملموسة في حالة اندهاش ،فيأخذهم الخوف والوجل والرهبة، هذه الحقيقة العينية للمكان يخشى كل من يمرّ عن هذه القرى أن يتعرض لما تعرض له القوم من عذاب مهين. هذه المشاهد المدهشة والمرعبة التي تتلقاها الأجيال اللاحقة ،هي بمثابة معالم ونماذج أثرية ومنارات راسخة تدل على مصير من يزيغ نحو الباطل، لهذا فإن أسرار الخطاب المكاني التاريخي هو حيز يحمل بين طياته مدلولات اجتماعية ووجدانية لا يفهمه إلا من تذوق روعة بيانه ووعي بمكنوناته العميقة وما قامت به الأقوام السابقة، وطبعا أنّ النفس البشرية تحمل قوتان ، قوّة الإدراك والفهم والتفكّر ، وقوّة العاطفة والمشاعر ، فأما الأولى "فوظيفتها تحتاج إلى إمعان ونظر فهي تنقب عن الحق لمعرفته ،وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل الإحساس والشعور بما في الأشياء من لذّة وألم .والبيان التام هو الذي يوفّي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ،فيؤتيها حظّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية التي توصل إلى المقصد وكمال المعنى. [3] يُفهم من هذا أنّ المتلقي مهما كان نوعه فهو يحظى باستجابة عقلية ذهنية ، وفي نفس الوقت يحمل معه استجابة عاطفية، وبمجموعهما يتوصل إلى جوهر البيان وحجّته.

إنّ المتتبع لصيغ القرآن وأنساقه المضمرنجد أنّ المثل في القرآني يمتاز بتقريب المسافة الإدراكية بين المتكلم والمتلقي، ولهذا يستفاد منه في أمور كثيرة مثل:" التذكير، والوعظُ والحثُّ، والزّجرُ، والاعتبارُ والتقرير، وتقريب المراد للعقلِ، وتصويرُه بصورةِ المحسوسِ، كما تصوّرُ المعانيَ بصورةِ الأشخاصِ،لأنها أَثْبَتُ في الأذهان، لاستعانةِ الذِّهنِ فيها بالحواسِّ، ثمَّ كان الغرضُ من المثلِ تشبيه الخفيّ بالجَليّ، والغائِب بالشاهدِ".4 وهذا هو ما يصبو إليه عين الحجاج المكاني.

3. المشاهدة العينية ودورها الحجاجي :

لاشك أنّ التاريخ أعظم منعطف معرفي للأمة، يعمل على تجسيد مشاهد مرئية للأحداث التي مرت بها عبر الأزمان ، ،فهو روحها وماضيها ومضامينها ؛لأنه الشاهد الوحيد على الوجود الإنساني ، وأهم سلطة في تصوير الواقع للأمم السابقة ، بل يمكن أن نقول أنّه "بمثابة الضّامن للفعل المبتغي...شأنها شأن حجّة السلطة" 5، وحضوره في القرآن أكبر مقبولية، لأنّ الاستشهاد بمصادر التاريخ وأحداثه كالنصوص "ذات القيمة السلطوية على المخاطَب كالمقولات الدينية أو كلمات القُواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة ،لأنّ قيمة الشخص المعترف بها سلفا من قبل السامعين يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية"6. والفطرة الإنسانية تدعو إلى استحضار الطابع الحسي الملموس أو المرئي ؛ لأنه يكون أكثر استدلالا في بيان الحجّة، وقد أشار الجاحظ إلى دور الشواهد التاريخية في تحديد المصلحة وصدق الخطاب والآثار بقوله :"فلمّا علم الله تبارك وتعالى أنّ الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ،ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم ،دون أن يرد عليهم آداب المرسلين ،كتب الأولين ،والأخبار عن القرون ،والجبابرة الماضيين طبع كل قرن من الناس على أخبار من يليه ،ووضع القرن الثاني دليلا يُعلم به صدق خبر الأول" 7 ، أما المثال الذي يعتمد على بنية المقارنة والتماثل فقد حدد "جيل دي كليرك *Gilles de Clercq* " شروطا لاشتغال هذه الآلية وهي 8 :

- شرط تناغم الواقع فلا يجوز المقارنة بين الأشياء والأحداث والأشخاص دون إمكانية إجراء التماثل والمقارنة ،وهو شرط ضروري أيضا لتشكيل قاعدة تروم وصف وتقييم الفعل.

- تتوقف المقارنة على الاستناد إلى موقف مألوف عند السامع ، لهذا فإن النّفوس تنجذب إلى الاستمالة، وهذا من خلال "تقارن المتماثلات وشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام ،لأنّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكنُ من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد" 9؛أي تقوم على النقل بواسطة التماثل لاتفاق حول مجال مألوف إلى مجال غير مألوف.

أما بالنسبة للحكاية المثلية التي تتمثل في شكل بنية سردية وظيفتها استخلاص الحكمة والعظة والقدوة ،وهي بمثابة المغزى العام الذي تمنحه للمستمع بشكل خاص ،لأنها تُعد بمثابة "شاهد على رأي أو حكمة أو قاعدة أخلاقية أو سلوكية يتمثّل به في مواقف مشابهة .وكثير ما يفصح النّص صراحة عن الغرض من ضرب المثل" 10 ، وهذا ما طلبه سيدنا إبراهيم عليه السلام من الله سبحانه وتعالى متوسّلا حتّى يريه آية لتوقن نفسه وتطمئن، قال تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[11]. بمعنى أنّ لغة المشاهدة لها وقع خاص على النّفوس والقلوب ولها تأثير كبير في بيان الدليل ، وهذا ما أكّده الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة أن المشاهدة العينية هي روح التأمل والمشاعر فهي تؤثر في النّفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿قال بلى ليطمئن قلبي ﴾، والشواهد في ذلك كثيرة ، ويضيف أيضا قائلا: " ولو أنّ رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان؟وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال :هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس ،والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب ، إذا كانت مستفادة من العيان، ومتصرفة حيث تتصرف العينان ، وإلا فلا حاجة بنا في أنّ الماء والنار لا يجتمعان، إلى ما يؤكده من رجوع إلى مشاهدة واستيثاق بتجربة" 12، ولهذا فإنّ الإنسان مطالب بجمع النظر الحي والإدراك العقلي ، حتى تتسنى له قوّة الملاحظة وقوّة التأثير والإقناع.

يُحدد الشاهد التاريخي كل ما كتبه المؤرخون وعلماء الآثار على بيان مدن بأكملها مدفونة تحت الأنقاض، وهذا دليل قطعي على وجود حضارات أُقيمت بتلك الأرض، وأنّ ما حلّ بها من هلاك وعذاب إلهي كان بسبب بعدها عن الله تعالى، وعلى الأمم اللاحقة أن تقتدي بما حلّ بأسلافهم، بل هو حجّة ودليل قطعي على ما وقع لهؤلاء القوم هو سبب إنكارهم لوجود الله والكفر بنعمه. وقد وصلت إلينا أخبارهم عن طريق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يرويه لنا من قصص عن أخبار الأقوام السابقين بقيمتها الروحية وحقيقتها المعنوية وطابعها الحسي، ونعتقد بكل ما أخبره لنا القرآن قول يقيني لا يحتمل الشك والاحتمال،فالموت والحياة حقيقة لا يفر منها عاقل جُبل على التفكير السليم، وهي حقيقة زوال الدنيا ومن عليها. وهذا كله يرتبط بالطابع الحسي دون التجريد العقلي.

لقد مدّنا الأسلوب القرآني منهجا فريدا في الإنسانية، باسطا يداه في تثبيت الحجّة وإقامة الدليل، مرغّبا تارة ومرهبا تارة أخرى، وهذا من أجل حملنا على الإقناع، فقد تعرضت آياته إلى الحديث عن الأرض والسماء والسّحاب والمطر وخلق الإنسان وغيرها، كل هذا من أجل التدليل على العقيدة الصحيحة وتثبيتها، والابتعاد عن كل ما يوهم بالشّرك بالله، كما يسعى إلى بيان عظمة الخالق وسلطانه على هذا الكون. وقد تطرق القرآ ن الكريم صراحة عند تناوله قصص الأنبياء، مخبرا عن أخبار السابقين من أقوام بقيت آثارهم شاهدة عليهم إلا أن تقوم الساعة، قال الله تعالى : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** ﴾[1]. لقد أمرنا الله بالتدبر والتأمل في آياته، لاستعاب المعاني والشواهد والعبر ،التي حملت على إهلاك الله تعالى هذه الأقوام بعدما ألزمها الحجة البينة، فلم تتحرك فيهم آلة العقل ولم تضطرب فيهم غريزة الوجدان، فأمرنا الله عباده أن يسيروا في الأرض ليقفوا على حقائق هذه الأمم وما حلّ بهم من عقاب جراء تكذيبهم لأنبيائهم ، قال تعالى:﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[2]. فجاءت تسلية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن يحذّر قومه من سوء العاقبة التي حلّت بالأقوام السابقين ن وأمرهم بالسير لمعرفة غضب رب العباد لأن" النظر في آثار

---

[1] سورة يوسف: الآية 102.

[2] سورة الأنعام :الآية 11.

الهالكين لا يتسنى إلا بعد انتهاء السّير إلى أماكنهم . قال تعالى :﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ 13** ﴾[13]، فالمكان في هذه الصورة المشهدية يُعبر عن حادثة عظيمة وقعت في الزمن الماضي ، والإنسان بطبعه لا تتحرك مشاعر وجدانه إلا برؤية الأشياء الحسية أو السماع عنها، فهذه المشاهد تحفّز المتلقي مهما كان نوعه بأن يحذر من سوء العاقبة أو المصير الذي حلّ بتلك الأقوام.

أما المشهد التاريخي الذي يرتسم في قصة فرعون الطاغية الذي اتخذ نفسه إلها من دون الله، فكان مصيره، الغرق هو وجنوده في اليم، فجعل الله سبحانه وتعالى بدنه آية وعبرة وحجّة لمن خلفه من الطغاة والظلمة عبر الزمان والمكان ، قال تعالى : ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ [14]. فالأدلة المادية إلى تعتدّ على المشاهدة هي عنصرا مشوقا ومحفزا في نفس الوقت، كما يشير على ضرورة الاختيار الحسن وابتغاء الصلاح وانتهاج التفكير والتبصر سبيلا في الحياة 15.

ويحضر معنا بعض الشواهد التاريخية التي بقيت الأمم تذكرها للأجيال، وما حصل لها من دمار وإهلاك ، فمثلا مدينة عاد والتي يرجع الفضل في اكتشاف الدليل المادي لمدينة عاد إلى عالم آثار هاوٍ هو (نيكولاس كلاب *Nicholas Clapp*)، وقد عثر في هذه المدينة المطمورة أعمدة ضخمة، والتي اعتبرها الدكتور (زارينز *Zarins*) وهو أحد أعضاء فريق البحث ومدير التنقيب، أنها دليلا على المدينة المكتشفة وهي مدينة (إرم) التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الفجر ،قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾. وقد توصل العلماء إلى اكتشاف سبب الذي أدى إلى غمر مدينة عاد ، وهذا ما "فسرته مجلة *Am'interesse* الفرنسية التي ذكرت أن مدينة إرم قد تعرّضت لعاصفة رملية عنيفة أدّت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال وصلت سماكها إلى حوالي 12 مترا. وهذا شاهد مادي على أن أرض قوم عاد تعرضت إلى قوة تدميرية إلهية جراء المعصية الكبرى، وهي الجهر بالشرك الأكبر وهو عدم توحيد الله تعالى، وقد ما أخبرنا بها الكتاب الحكيم 16. كما تذكر كتب التاريخ الإسلامي أيضا أنّ "مساكن عاد تقع في أرض (الأحقاب) ، من جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاب تقع في شمال حضر موت، ويقع في شمال الأحقاب الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم أرض قاحلة،لا أنيس فيها ولا ديار" 17. وبعد سرد الأدلة والحجج على عثور آثار ما يثبت وجود قوم عاد في تلك المنطقة ، والتي حقّ الله عليها العذاب، بعد ما كانت حضارة قائمة مشهودة ،من خلال تشييدهم للمصانع ، كما يتضح لنا في قوله تعالى : ﴿**أتبنون بكلّ ريع ءاية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾[18]، فحجية التقدم والازدهار المكاني تتلخص لنا في لفظة المصانع والتي تعرف بالأمكنة العظيمة التي تمارس فيها الكثير من الصناعات ،كصناعة الأسلحة والنسيج وغيرهما. ومجمل القول نستخلص العبر التي نجنيها من قصة عاد فيما يلي:

ـ أن الله أنعم قوم عاد بنعم كثيرة وعظيمة ، بأنها حضارة لا تضاهيها حضارة في زمانها حضارة أخرى، والدليل على ذلك قوله تعالى:﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾[19].لكن الله سلّط عليها العذاب والدمار، لأنها خرجت عن المنهج الرباني التوحيدي.

ـ أنّ الله أهلك قوم عاد بريح صرصر عاتية، بعدما أنكروا وجود الله، وتكذيب النبي هود عليه السلام قال تعالى :﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴾[20].

أما ثمود فتقع منازلهم بين الشام والحجاز. ولم تزل رسومهم باقية وشاهدة عن حضارتها حتى يومنا هذا، فهي طريق الحجيج القادمين من الشام بالقرب من واد القرى، وأما المتأمل لبيوتهم المنحوتة في الصخر دلالة على قوة أجسادهم وهم ينحتون من الجبال بيوتا " 21. وقد مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على ديارهم في غزوة تبوك ، ونهى عن دخولها. وهذا استنادا لما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :لا تدخلوا

على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم .
وكان هذا النهي منه صلى الله عليه وسلم لما مرّ مع أصحابه بالحجر ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك "22. فالبكاء والخشية تبعث الإنسان إلى مراجعة النفس ومحاسبتها على ما اقترفت من تقصير اتجاه خالقها ، كما يدفع أيضا إلى روح التأمل والتفكير والاعتبار في المصير المحتوم وهو الرجوع إلى الله تعالى، وقد أمهل الله سبحانه وتعالى أهل الكفر من قبل بعدما بسط الله لهم كلّ النعم في الأرض وفي أنفسهم وأمهلهم مدة طويلة ، لكن جحدوا بنعمه وكفروا برسله فغضب عليهم وحقّ عليهم العذاب .

أما ما يُظهر حجّة المشاهدة العينية لآثار قوم لوط عليه السلام، التي بقيت آثارهم خالدة بخلود القرآن الكريم ،فقد نبأنا الله تعالى عن أحوالهم وأخبارهم ،وأن نتخذ منهم العبرة لما حلّ بهم من عذاب ، وهذا ما يتجلى لنا في سورة الصافات ، قوله تعالى:﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ ؛ أي إنّ قوافل أهل قريش عند سفرها إلى الشام فإنها تمرّ على هذه الآثار من قوم لوط الذين خالفوا الفطرة السليمة و أزاغو ا عن سنة الله في خلقه ،ولا شك "أن مشاهدة آثارهم باستعمال الرؤية البصرية أبلغ تأثيرا في الاتعاظ بهم،والاعتبار بمصارعهم. فإن في أطلال قريتهم الخالية حجّة شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم. 23 قال الله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾[24]. والمتمعّن في حجّة المشاهدة التي أقيمت على الناس من بعدهم لتعطي مشهدا تصويريا رهيبا لما نزل من عذاب وغضب الهي على الأقوام التي انحرفت عن المنهج التوحيدي، فجاءت هذه الصور العينية المكانية مروعة ومخيفة، وهي دليل على قوّة الإرادة النافذة والمطلقة للرّب سبحانه وتعالى ،التي يعجز اللسان عن التعبير عنها، وكذلك "البلاء المعجّل، والإبادة الجماعية لبعض أقوام الرّسل بالطوفان، والعواصف، والصواعق، والخسف، والأخذ بالسّنين ، ونحو ذلك مما يبثّ الرّعب في القلوب، والاعتقاد بفساد معظم البشر. 25 بالإضافة أنّ كل مقومات الحجّة التاريخية متوفرة سواء المكان أم الزمان بيد المتأمل والمتدبّر ،لأنها ضرورية في فهم الخطاب، يقول محمد خطابي :" كلما توفر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات (المتكلم ،الرسالة ، الزمان والمكان، ونوع الرسالة) تكون له حظوظ قوية لفهم الرسالة، وتأويلها أي وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لديها معنى "26.

إنّ المشاهدة العينية التي يستدل بها العقل في إظهار العلم والحكمة تترك أثارها على نفسية المتلقي أكثر من السماع ، ولعل مشاهدة آثار الأقوام السابقين تحظى بحجّة يقينية لا يشوبها شك ولا ريبة للمتلقي ،لأن الرؤية البصرية أشدّ وقعا واستدلالا على السماع في تصديق هذه الأحداث، لأنّ "الأعصاب التي توصل بين العين والمخ أكبر من تلك التي توصل بين الأذن والمخ خمسا وعشرين مرة. ولدى الصينيين مثل مأثور يقول : إنّ رؤية الشيء مرّة، خير من سماعه ألف مرة".27

لقد خلدّ الله تعالى آثار الأقوام السابقة وما حلّ بهم على مختلف الأزمان والأجيال، وهذا لقيام الحجّة لمن بعدهم ، كما تُعد صورة حية حسية للاتعاظ والعبرة لذوي الأفهام والقرائح السليمة من البشر ،فالنّاظر لهذه المشاهد تخشع لها القلوب لما رأت من الجلالة والهيبة والعظمة والخشية للرّب سبحانه وتعالى .

إنّ الشواهد التاريخية التي نطق بها الذكر الحكيم، هي بمثابة لوحة تشكيلية ترسم لنا عظمة الرّب سبحانه وتعالى في أخذ هذه القرى وهي ظالمة ، وجاء "ذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح ، وتفصيل ما حلّ بهم وعاد وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين ، ورسالة موسى تعريضا بما في جميع ذلك من العبر ، وما ينبغي منه الحذر، فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها، وإنّ في تلك الأنباء عظّة للمتعضين بسيرهم 28،هذه الأدلة في مجملها تتنوع بين توظيف المشاهدة المحسوسة،وبين الدليل السمعي الذي يأتي عن طريق تواتر الخبر والثابت عن طريق الأنبياء والمرسلين، فكلها أدلة تاريخية من مصاف الأدلة الأخرى.

أما سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ الذي بيّن لقومه هلاك من كان قبلهم من الأقوام ،مستشهدا بحجية المكان والزمان ، ومحذّرهم من أن يكون مصيرهم كمصير من سبقهم من الظالمين ،يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **ويا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ، أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾. هذا الجدال الذي كان بين شعيب عليه السلام وقومه ،يريد من ورائه هدم كل معتقدات الشرك التي كانوا يمارسونها وبيان الحق، وقد أقام عليهم الحجّة قصد إقناعهم من خلال جغرافية المكان والزمان لقوم لوط عليه السلام الذي لم يكونوا ببعيد، لأنّ ديار قوم لوط عليه السلام كانت قريبة من ديار قوم شعيب، إذ منازل مدين موجودة بجوار معان مما يلي الحجاز ، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن كثير في قوله: "كان أهل مدين قوما عربا، يسكنون مدينتهم (مدين)، التي هي قريبة من أرض معان، من أطراف الشام، مما يلي الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة"، وهذه إشارة مكانية وزمانية فكأنّه يصور لهم مشهدا فوتوغرافيا يريد من ورائه تحذير قومه من مخالفة الله تعالى في أمره، ويحذرهم من منازعته في ملكه والشرك به، حتى لا يكون مصيركم مثل ذلك العذاب المهين الذي حلّ ب قوم لوط، فسيدنا شعيب عليه السلام بهذا الخطاب ،أضمر النتيجة التي سيؤول إليها قومه، وهي أنّ مصيرهم مصير قوم لوط وهو الهلاك. وكان الردّ سريعا من قومه فقد سخروا منه وطعنوا في شخصه ورموه بالضعف ،وهوان الوزن والمكانة بين القوم، وهددوه بالرجم .

4. الخاتمة:

يُعد الفضاء المكاني آلية من آليات الحجاج، لا يكمن دوره في التزيين الجمالي فحسب، بل وُجد ليحمل في نفوس المتلقين أو المتأملين لهذه القرى (المكان) الرهبة والخوف لما حلّ بهذه الأقوام، وفي نفس الوقت تظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ،بأن عذابه شديد،وما المكان سوى فضاء محسوس يدركه المتلقي بمعيّة حواسه وحجة لمن تسول له نفسه إلى الطغيان والتعنت. إن تجسيد هذه التوجيهات الحسية المكانية أمام مرأى العين المجردة، ترسم لنا موقفا عظيما مشحونا بالفراغا ت التي تبقى منقوشة في ذهن المتلقي . واستخلاصا لما سبق نعرض النتائج الآتية:

- تُعد سلطة المكان الجغرافي في النص القرآني منشأ نفسي رهيب من تسوّل له نفسه العصيان والطغيان .
- توظيف الشواهد ا لمكانية في النص القرآني لم يكن اعتباطيا، بل جاءت استجابة للمتلقي في حجيتها وبيانها، فهي تبرز البعد التأثيري والإقناعي للإنسان مهما كانت عقيدته ومذهبه.
- أمرنا الله بالتدبر والتأمل في آياته المكانية، لاستعاب المعاني والشواهد والعبر ،التي حملت على إهلاك الله تعالى هذه الأقوام بعدما ألزمها الحجة البينة.
- خلدّ الله تعالى سبحانه وتعالى آثار الأقوام السابقة وما حلّ بهم من عذاب هلاك ، لتكون صورة حسية للاتعاظ والعبرة لذوي الأفهام والقرائح السليمة من البشر.
- بيان عظمة الرّب سبحانه وتعالى في أخذ هذه القرى وهي ظالمة،بعدما أقام عليهم الحجة والبيان.

5. الهوامش والإحالات:

1 محمد مشبال،(2017م)،في بلاغة الحجاج،نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017م،ص86.

2 ينظر: محمد السيد حسن مصطفى،(1981م)، روائع الإعجاز في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية ،ط1 ، ص62.

3ينظر: محمد عبد الله دراز،(1997م) ،النبأ العظيم ،دار طيبة للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية ،الرياض، ط1،ص 114.

4 ينظر :السيوطي،إتقان علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، (د ـ ط)..ص237.

5 محمد مشبال:،(2013م)، بلاغة النّص التراثي مقارنة حجاجية بلاغية حجاجية، دار العين للنشر، الإسكندرية،ص136.

6 سالم الطلبة ،(2008م)،الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت ،لبنان،ط1،.ص131 132.

7 الجاحظ،(1991م)، رسائل الجاحظ،تح، عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1،.ج3،ص239.

8 ينظر: محمد مشبال:في بلاغة الحجاج،نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات،مرجع سابق ص87.

9 حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء،: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب الإسلامي،(د ـ ط). ص44 ـ 45

10 ألفت كمال الروبي ،(1993)، التمثيل في التراث النقدي والبلاغي حتى نهاية القرن الخامس الهجري،ضمن كتاب مشترك :المجاز والتمثيل في العصور الوسطى،الدار البيضاء،ط2،ص76.

11سورة البقرة :160.

12 الجرجاني، أسرار البلاغة،مرجع سابق، 106-107.

13 سورة الفجر: الآية 6-13.

14 سورة يونس:الآية 92.

15 ينظر: محمد مشبال : بلاغة النّص التراثي مقارنة حجاجية ، مرجع سابق،ص137

16 ينظر: محمد شحرور،2012، القصص القرآني في قراءة معاصرة، دار الساقي، ط1، ، بيروت ، لبنان، مجلد02،ج2، ص69.

17 محمد شحرور،2012، القصص القرآني في قراءة معاصرة ، مرجع سابق، ، ج2،ص72.

18سورة الشعراء:الآية 125.

19سورة الفجر: الآية 08

20سورة الحاقة:الآية06 .

21 ينظر:أبو الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت،ج2،ص33.

22 البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ، (2002م)،صحيح البخاري،دار ابن كثير ،بيروت، ط1، باب الصلاة، ص167.

23 ينظر: التهامي نقرة،(1974م)سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط 1، ص449.

24 سورة العنكبوت:الآية 35.

25 التهامي نقرة،(1974م)سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط 1، ص450.

26 محمد خطابي،(1991م)، لسانيات النص،مدخل إلى انسجام الخطاب،ط1،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ص297.

27 ريل كارينجي: التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة،تر،رمزي يسي، وعزت فهيم صالح،دار الفكر العربي،ص64.

28 الطاهر بن عاشور ،(1984)،التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج11،ص 313.

6. المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1- محمد مشبال،(2017م)،في بلاغة الحجاج،نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، كنوز المعرفة، عمان، ط1.

2- مـحمد السيد حسن مصطفى،(1981م)، روائع الإعجاز في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية ،ط1 .

3- محمد عبد الله دراز،(1997م) ،النبأ العظيم ،دار طيبة للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية ،الرياض، ط1.

4- السيوطي،إتقان علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

5- محمد مشبال:،(2013م)، بلاغة النّص التراثي مقارنة حجاجية بلاغية حجاجية، دار العين للنشر، الإسكندرية.

6 – الجرجاني عبد القاهر ،(1991)، أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1 .

7- سالم الطلبة ،(2008م)الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت ،لبنان،ط1.

8- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء،: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب الإسلامي،(د ـ ط).
9- ألفت كمال الروبي،(1993)، التمثيل في التراث النقدي والبلاغي حتى نهاية القرن الخامس الهجري،ضمن كتاب مشترك :المجاز والتمثيل في العصور الوسطى،الدار البيضاء،ط2.
10- شحرور،2012، القصص القرآني في قراءة معاصرة، دار الساقي، ط1، ، بيروت ، لبنان، مجلد02،ج2.
11- أبو الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت،ج2
12- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ، (2002م)،صحيح البخاري،دار ابن كثير ،بيروت، ط1، باب الصلاة.
13 - التهامي نقرة،(1974م)سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط 1.
14 – محمد خطابي،(1991م)، لسانيات النص،مدخل إلى انسجام الخطاب،ط1،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
15- ريل كارينجي: التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة،تر،رمزي يسي، وعزت فهيم صالح،دار الفكر العربي.
16-الطاهر بن عاشور ،(1984)،التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج11.
17- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل،(1981م)، قصص الأنبياء، مكتبة الشركة الجزائرية ،الجزائر،(د ـ ط).